بمناسبة الغارات الجوية على الاسكندرية :

دار الوجد والمجد

للدكتور زكي مبارك

[لو عاش « شوقي » إلى أن شهد ما تعاني الاسكندرية من كوارث وخطوب لواساها بأطايب الشعر البليغ . فإلى روحه في دار الخلود أهدي هذا القصيد]

زكي مبارك

بأهلِ اسكندريةَ بعضُ ما بي ... من الأحزانِ للثغر المصاب
أدارَ هَوايَ ما قلبي بناسٍ ... هُيامي فوق أمواجِ العُباب
وهل يَنسى أخو كرمٍ وعهد ... رحيقَ الراحِ يُمزجُ بالرُّضاب ؟
فإن تكن الكوارثُ آثماتٍ ... صببْن عليك أسواطَ العذاب
فلن ينسى لك التاريخُ عهداً ... ضحوكَ الوجه مرهوبَ الجناب

* * *

سَحَابكِ اللهُ يا دارَ التنادي ... إلى الهيجاء أو دارَ التصابي
ألم تمرح بساحتك الجوازي ... لواعبَ في حمى الأُسْد الغِضاب(١)
ألم تُلقَ مع الأقدار يوماً ... كتائبَ من لحاظٍ أو حراب ؟
وكيف يطيبُ للدنيا وُجودٌ ... إذا هُدِّدتِ ظلماً بالخراب ؟
وأين تجولُ أفراسُ المعالي ؟ ... وأين تصول أحلامُ الشباب ؟

* * *

عروسَ البحر، والدنيا سفينٌ ... تروِّعُ بالقواصف والضباب(٢)
أعندكِ أن دارَ المجدِ تنجو ... على الأيام من كَرَبِ الصِّعاب؟
أعندكِ أن في الدنيا رياضاً ... تصان من الأفاعي والذباب ؟

* * *

عروسَ البحر، ما هذي الرزايا ... تصب على بنيكِ بلا حساب ؟
أكنت جنيت ، والدنيا مجالٌ ... لفروض الثواب أو العقاب ؟
جمالكِ فاتنٌ ، والحسن ذنبٌ ... لأهل الحسن في شرع الدئاب
فما شكواكِ من ظلماء طالت ... وتلك جناية المجدِ اللباب ؟

* * *

عروسَ البحر، يا مهوى فتوني ... ويا مَثْنى أماني المِعذاب
عُقلتُ بأرضك العزّاء عاماً ... فكان أعزّ عام في شبابي(١)
دخلتُك عانياً في أسر ليل ... أصمّ القلب زنجيّ الإهاب
فأقبلَ نورك الروحيّ يسري ... إلى أرواحنا من كلّ باب
رأى العقّالُ أن نحيا أساري ... حياةَ السيف في سُدَفِ القِراب(٢)
فلا ندري لوجه البحر لوناً ... سوى الموهومِ من لمع السراب
ولا نقتاتُ من زاد الأماني ... سوى المظنون من يوم المآب
فهل سمعَ الشقيّ بما أفاءتْ ... علينا اسكندريةُ من ثواب ؟
هَديرُ البحر كان يهيجُ عمداً ... ليطربنا على بُعْد المشاب
وحَبّ الرمل صار لنا مهاداً ... مُطرَّزة بأزهارِ الروابي
فأمسي الاعتقال على اجتواه ... رخيَّ القيد مأنوسَ الرِّحاب(٣)

* * *

عروسَ البحر، حدِّثني شهودٌ ... بأن الشط صارَ إلى تباب
فلا غيداءُ تخطرُ في رِحاهُ ... كرقص البدر من خلف السحاب
ولا صَبٌّ خَطورُ الخد يمشي ... على جَنباته مَشْيَ الحُباب
ولا صهباء يحسُوها بنوهُ ... وقد قُبستْ من الذهب المذاب
إذا طافتْ بهم هاموا تخفّوا ... لِتقبول الجبانة والدِّعاب
وأمسوا والكواكبُ في عُلاها ... لهم أسلابُ فتكٍ وانتهاب
سُلافٌ صانها «باكوسُ» عما ... يشوبُ الراحَ من إثمٍ وعاب(٤)
ألمْ يثقل على حُكماء قومي ... وقد عاقرتها وِزْرُ اغتيابي ؟

* * *

أميرَ الشطّ كنتُ فأين عهدي ... برمحي الحسن في الشطّ المُجاب
وأينَ رِمالهُ مني وكانتْ ... مناسكَ صَبْوتي في كلّ (آب)(٥)

---

(١) الجوازي هي الظباء لاجتزائها بالعشب عن الماء

(٢) القواصف هي الرياح التي تثور في البحر . أما العواصف فهي الرياح التي تثور في البر

(١) العزاء هي الأرض الصلبة ، وكان موضع الاعتقال في بقعة جرداء بناحية « سيدي بشر » قبل أن تصبح تلك الناحية من ملاعب الصيف

(٢) القال على وزن سجان هو حارس المعتقلين ، والسدف جمع سدفة بالضم وهي الظلمة ، والقراب بكسر القاف هو الغمد

(٣) الاجتواء : البغض

(٤) باكوس هو إله الخمر عند اليونان ، وبه سميت ضاحية كبيرة من ضواحي الاسكندرية

(٥) آب : شهر أغسطس ، وهو أم شهور الاصطياف

إليها كان حَجِّي وأعتماري ... وفيها كان خَتْلي وٱختلابي
فكيف أذوق للصَّبَوات طعماً ... وعن عَرَفاتها طال ٱحتجابي ؟

* * *

ندامَى البحرِ ، سوف أعود يوماً ... لأُطفئ ما بقلبي من لؤاب[1]
نشيدي في التصوف كان لحناً ... نقلتُ صداه عن قصف العباب
سوايَ يَرى الوجود إن ٱجتلاه ... سطوراً ناطقاتٍ في كتاب
ويجلوه لوجداني ورُوحي ... إذا ماشئتُ إظلالُ السحاب[2]
وهل كانت حياة الناس إلا ... قلائد صاغها رَبُّ الرِّباب[3]
عشقتُ البحرَ والصحراء عشقاً ... به طال ٱندفاعي وٱنجذابي
أُطِلُّ على الفضاء فتَرْدَهيني ... رِحابٌ غارقاتٌ في رِحاب
وأنظُر للوجودِ فلا أراهُ ... سوى خمرٍ تعاقَر أو رُضاب[4]

* * *

أخِلّائي هنالكَ ، حدِّثوني ... حديثَ (النثر) وٱنتظروا إيابي
أفوقَ رُبوعه غامتْ سماءٌ ... مؤَجَّجةٌ بأقباسِ اللُّهاب[5]
وما القومُ الذين عَدَوْا عليه ... كعدوان الذباب على الشراب ؟
أكانوا جِنَّةً صُمًّا فماتوا ... به عَيْثَ الأراقم بالوِطاب[6]
أكان (النسر) في التحليق أدنى
إلى الإسفاف من ذاك (الغراب) ؟
وما الألمانُ إلا قومُ بَغْيٍ ... أثيمُ الجِدِّ مذمومُ القِطاب[7]
نِطاحٌ كلُّه سَفَهٌ ولؤمٌ ... ولو كَرِه المصانعُ والمحابي

* * *

أحقٌّ أن نادى (النثر) أقوى ... وأفقر من أحاديث الصحاب ؟
فلا «النشارُ» يسأل غير صاحٍ ... ولا «شيبوب» يحلم بالجواب ؟
«أبو شادي» أفاقَ ، فمَن بَشيري
برَجْعِ الأمنِ للنثر الهَاب[1]
وكيف يَعيشُ رُوحٌ كان أُنسي
وإنْ أُلِفَ اللجاجةَ في العِضاب ؟
أكاتِمُ حبَّهُ قلبي وأمضي ... فأُعلنُ بُغضه عند العتاب
هو الدنيا : وقد جُنَّتْ فصاغت ... رحيقَ هواه من شهد وصاب

* * *

بأهل اسكندريةَ بعضُ ما بي ... من الأحزان للنثر المُصاب
سمعتُ حديثَ نكبتهم فأمسى ... فؤادي في انصداعٍ وانشعاب
ملائك من أديم الخلد صيغوا ... ليومِ الوَجْدِ أو يوم الغلاب
أعزَّ البحرُ أنفسهم فعزوا ... فهم قوم أعتلاء وٱصطخاب
هُمُ الحراسُ للوطن المُفدّى ... من العادينَ أشباه الكُلاب[2]
فكيف تبددوا وأدال منهمْ ... مديلُ البأس من وكر العُقاب[3]
تُساق إليهمُ الأقوات ، هلاّ ... تساق إليهم عُددُ الحراب ؟
أغيثوهمْ بسَيْفٍ لا يزاد ... فهم خلف القساورة الصلاب[4]
أمِدوهم ، إذا شئتم ، بجيش ... وقاح الوجه منزوعِ النقاب
فما حَفظ الديارَ سوى حسامٍ ... به ظَمأٌ إلى يوم الضِّراب

* * *

أجب «عبد القوى[5]» وأنت شهم
سريعٌ لا يُداورُ في الجواب
أأنت ترى «المخابيَ» واقيات ... وهنَّ أذل من غار الضِّباب ؟
وما شرف الفتى وقد ٱستنامتْ ... جوانحُه إلى مثوى الهوابي[6]
لنا مارِض نَسيناهُ فضمَّنا ... ضياعَ التبر في جوف التراب
لقد كنّا ، وكنا ، ثم كنا ... أداة الفتك من ظفر وناب

---

(١) الؤاب : العطش

(٢) أجمل الشاعر في هذين البيتين معنى فصله في « ذكريات باريس » في بحث عنوانه « بين فصول الكتاب وآيات الوجود »

(٣) الرباب هو ما دون السحاب ، فالسحاب ربه ، ورب السحاب هو البحر ، ورب البحر هو الله . وللشاعر عقيدة صوفية تقوم على أساس « الحقيقة البحرية » وهي عقيدة لا يتسع لشرحها المجال ؛ وقد تفتح أبواباً من الجدل لا يطيقها أكثر الناس ، لأنها تخالف ما اصطلح عليه الصوفية

(٤) يريد الشاعر أن يقول إن الوجود كله جميل حتى ليحسبه رشفات من خمر أو رضاب

(٥) اللهاب بالضم هو اللهب أو اللهيب

(٦) الأراقم هي الحيات الرقط ، والوطاب مفردها وطب ، وهي أوعية اللبن ، والحيات تحب اللبن إلى حد الجنون ، والعرب يصفونها بالصمم ليبالغوا في قدرتها على الايذاء ؛ وهو الوصف الذي أضافه الشاعر إلى أولئك الجن العائثين

(٧) القطاب بكسر القاف هو المزاح

(١) اللهاب بفتح اللام ، هو المكان الذي يكثر فيه التهيب والخوف . وإفاقة الدكتور أبي شادي تستحق التنويه ، فقد سقطت قنبلة على بعد خمسمائة متر من داره ولم يصب بسوء . وتلك أول مرة تظهر فيها كرامة « أبوللون » ! ! (٢) القلاب . بضم القاف ، داء يعصر القلب

(٣) العقاب ، بضم العين ، طائر من الجوارح

(٤) القساورة : الأسود

(٥) هو المهندس الأديب عبد القوى أحمد باشا وزير الوقاية المدنية

(٦) الهوابي : أتربة القبور

ركزنا الرعب فى مهيع الضوارى فكيف تروزنا مهيع الذئاب ؟
لوادينا القوىّ عتت وجوه عزيزة بالانتساب والاكتساب
ألم تدفن بوادينا قروما
أرادوا الشرب من أمواه (حابى) (١)
فكيف نكولنا عن ردع قوم لئام البنى منكودى الإصاب (٢)
هم ظنوا الكنانة زاد يوم كظن النمل فى تسف الهضاب
فإن فازوا فسوف نكون منهم مكان البحر من لعب الضوابى (٣)
وسوف نظل نحن كما فطرنا أباة الضيم أحرار الرقاب
عركنا الدهر جيلاً بعد جيل وكابدنا الألوف من الصعاب
فما هنا على الأقدار يوماً ولا أمست بوارقنا نوابى (٤)
ألم نشرق على الشرق المسنى فندفع عنه آصار الضباب ؟ (٥)
بنا وثقت شعوب لم تواجه بروق الغرب إلا فى ارتياب
بنا استهدت بصائر لم ترضها خداعاً بالمواعيد الكذاب
كدأبكم وقد مرنت منها كم على ستر الخيانة بالخلاب (٦)
أكان العلم فى عالى سناه ذريعة الاسترقاق والاستلاب
أروني منة أسلفتموها بلا نهب يراد ولا اغتصاب
طلائع كان علمكم ليوم يهون بجنبه يوم الحساب
ولم يك علمنا إلا نظيراً لضوء الشمس يزهد فى الثواب
أأنتم تفتنون بما ملكتم من العدد النذيرة بالخراب
ولا تزهى بآراء صحاح هى المنشود من فصل الخطاب
فإن تخلد مآثرنا وتسلم على التاريخ من شبه المعاب
فذاك لأنها آثار قوم كرام الروح أطهار الإهاب
لنا الخلد الذى لن ترزقوه ولو أوتيتم ملك السحاب
نخبئوا فى المطامع كيف شئتم
وخوضوا القاعات من العقاب (٧)
ورودوا الأرض فى شرق وغرب
بكبر الليث أو زهو الغراب

وصولوا آمنين بنار حرب تحيل الزهرات إلى يباب (١)
فسوف تروننا بعد مدى قصير فرائس للمحاق وللذهاب

* * *

بأهل اسكندرية بعض ما بى من الأحزان للشعر المصاب
أتتك قيامة قامت فدكت
حصون البأس من تلك الطوابى (٢) ؟
فمن كهل سديد الرأى يعيى لوقع الهول مفقود الصواب
ومن رشأ تصيره الرزايا
وقيذ الشيب فى شرخ الشباب (٣)
ومن عذراء يلفظها حماها فتخرج للبلاء بلا نقاب
قوارع لم تقع إلا بأرض يقارع أهلها وقد الحراب (٤)
فما آثام أهل (الثغر) حتى يشن عليهم ويل العذاب ؟
مضت زمر إلى الأرياف منهم مضى الأسد من غاب لغاب
فكيف استقبلوا بدار لقاه جشيب العيش فى تلك الشعاب ؟
أمن بعد الحشايا ناعمات يكون بساطهم متن التراب ؟
إلى جلواتهم فى الصيف كانت ترف أطايب الحسن الشباب
وفى داراتهم كان التنادى
إلى الصبوات فى الشط الرغاب (٥)
فكيف مضوا حيارى لم يثوبوا إلى زاد بعد ولا ثياب ؟
وكيف غدوا بهذا السيف صرعى
لشئوم الشتات والاغتراب ؟
كذاك العيش بؤس بعد لين وشهد يستقى من بعد صاب
ومن عشق السلافة فى صفاها أحب لحبها رنق الشباب (٦)

* * *

عروس البحر ، نسرف إن رأينا
حياتك فى المزاح وفى اللعاب (٧)
وكيف وفى معاهدك الخوالى تسابقت العقول إلى الوثاب ؟
بكل محلة وبكل أرض مآثر منك طيبة الانتساب (٨)

(١) حابى هو اسم الليل عند قدماء المصريين ، والحابى هو الوهاب
(٢) الإصاب مصدر أصاب ، كالإقام مصدر أقام وفيه إعلال بالحذف
(٣) الضوابى : النيران (٤) البوارق : السيوف
(٥) الآصار : الأثقال
(٦) الخلاب بالكسر ، هو الخداع
(٧) العقاب جمع عقبة بالتحريك وهى الطريق الصعب فى الجبل

(١) اليباب : الخراب
(٢) الطوابى : القلاع ، وهى كلمة تركية الأصل
(٣) الوقيذ : المطعون
(٤) الحراب : المحاربة
(٥) الرغاب ، بفتح الراء ، القصيع
(٦) الصباب ، بضم الصاد ، بقية الكأس ، والرنق : الكدر
(٧) اللعاب : الملاعبة (٨) النصاب : الأصل

وما روما وآثينا إذا ما تباری الفاخرون بالانتساب ؟
منار العقل كنت بلا امتراء ونار القلب كنت بلا ارتياب
بكى التاريخ من عهد لعهد
مصاب العلم فی (دار الكتاب)[1]

فهل كانت بدائعها لقوم أجانب عن مرابعك الرحاب ؟
بَنَاكِ أسكندرٌ فيا بَنَاهُ كذلك قِيلَ رَجْماً بالمَغَاب[2]
ولو أمسى أولو الألباب يوماً لِمَسْحِ الوحی فی تلك الرِّوابی
لَآمَنَ فِتيةٌ منهم برأی يُخَالُك صادقاً «بِكْرَ العُبَاب»
وهل «ڤِيتوسُ» عندَ مُرَبِّيها
سوی «راقودَ» فی أحلام «حابی» ؟[3]

لِـ «كِيمی» أنت، يادارَ التنادی إلى الهيجاء أودارَ التصابی[4]
لِـ «كِيمی» أنت من أيام نوح توارثك أبنٌ عن خير آب[5]

* * *

مَضى عهدُ القياصر فی أنزعاج بأرضِ اسكندريةَ وانقلاب
بلادٌ لم تكن إلّا مُجالاً لِشبُّوب الصِّيال والاحتراب
بجمْر الثورة الحمراء يُغذَى بَنُوها لا يزاد أو شرابِ
وجاء الفتحُ فانقادوا لقومٍ مساكنهم بصهوات العراب[6]
هوَ الإسلامُ طهّرهم فأضحوا
كماء المزْن فی شُعَب اللِّصاب[7]

فهل يَدری المؤرخُ كيف صاروا
طلائعَ للجهادِ وللضِّلاب ؟
عليهمْ حول الإسلامُ فيا أرادَ من المغارة الصِّلاب
فأمّوا الغربَ يحرسهم تقاهم وقد مشت الملائك فی الركاب
وحلوا عادلين به كراماً حلول النيث بالبقع الجداب
فلما أنْ هوت شمس المعالی بأندلسٍ ولاذتْ بالحجاب
تقاطر أهلها يبغون حصناً يقيهم شر أيام التباب
إلى جفن الحمى بالنثر عادوا كما عاد الجراز إلى الغراب[1]

* * *

أتاريخاً يحبّره قصيدی لماضی «النثر» فی عهد الشباب ؟
وما الشمس المضيئة إن حكتها لرائيها خيوط من لعاب ؟[2]

* * *

عليك اسكندرية أجّ حزنی فطار تجلدی وهوی صوابی[3]
إذا فكرت فيك غلت دمائی وآذن جمر حقدی بالتهاب
ألا سيف أجرده وأمضی لأدفع عنك عادية الذئاب !
ألا جيش قوی البطش ضار يذيق عداك أكواب العذاب ؟
سأصمت كارهاً، والصمت حيناً يعدّ من البراعة فی الجواب

زكی مبارك

---

(١) دار الكتاب هی مكتبة الاسكندرية المشهورة فی التاريخ
(٢) المغاب هو الغيب، ومعناه الظن والتخمين
(٣) يريد الشاعر أن يقول : إن الأسكندرية كانت موجودة قبل الأسكندر بأزمان طوال، وإنما سمی أحد أحيائها باسمه، فغلبت التسمية على مر الزمان، واسمها القديم راقود. وهنا التفت الشاعر لفتة خيالية، فجعل «راقود» نظيرة «فينوس» و«ڤينوس» هی ربة الجمال عند القدماء وقد ولدت على شاطئ البحر، وكذلك ولدت «راقود»، وذلك معنى قوله : إنها «بكر العباب». ومن المؤكد أن «راقود» هی أقدم المدائن البحرية، لأن طبيعة ذلك المكان من شواطئ مصر توجب أن يكون أهلا للحضارة والعمران
(٤) «كيمی» هو اسم مصر عند أهلها القدماء، وكيمی معناه السواد، وسميت «كيمی» لغلبة هذا اللون على أرضها، ومن كيمی جاءت لفظة «الكيمياء» لشهرة المصريين بالتفوق فی الاختبارات الكيميائية
(٥) «الآب»، بالمد، هو : «الأب» ؛ وهذا المد جاء لعلة صرفية هی تعويض الحرف المحذوف وهو الواو، وهو يعوض فی لغة التخاطب بتضعيف الباء ؛ فقول النصارى «باسم الآب» صحيح من الوجهة اللغوية
(٦) «العراب» : الخيل العربية، وساكن العرب فی أيام بأسهم كانت بصهوات الخيل
(٧) «اللصاب» جمع لصب، بكسر اللام، وهو الشعب الضيق فی الجبل، وهو يحفظ الماء من الأفناء

(١) الجراز، بالضم، هو السيف القاطع، والشاعر يشير إلى حقيقة تاريخية، وهی أن فريقاً من الجيش الذی فتح أفريقية ثم دخل الأندلس كان من الأسكندرية، فلما غاب نجم الاندلس لاذ كثير من أهلها بالأسكندرية، فكثير من العائلات بالثغر يرجعون إلى أصول أندلسية ومغربية، وذلك سر الفراسة الغالبة على طباع الأسكندريين
(٢) لعاب الشمس شعاع ينحدر من السماء عند الظهيرة، والتاريخ لا يصور الحقائق إلا بمقدار ما يصور اللعاب حقيقة الشمس
(٣) أج الحزن : استعر واضطرم

إدارة البلديات — تنظيم
تقبل العطاءات لغاية ظهر ٤١/٨/١٤
ببلدية المحلة الكبرى عن توريد شعير
وتطلب الشروط منها مجاناً
٨٤٣٨